دور الأزهر في الحياة الثقافية قبل عصر النهضة

محمد الشهودي *

اتسمت الثقافة العربية الإسلامية بشيوعها بين كثير من الدارسين خارج المؤسسات التعليمية ودور العبادة، فهي قريبة المنال من جماهير الناس، يجدونها فى بيوت العلماء، ومنتديات الأدباء، وفي دكاكين الوراقين ونساخ الكتب، ويجدونها فى محاضر الصوفية، والوعاظ، وفي مكتبات عامة أو شبة عامة يغشاها الناس فى بيوت العيان ومحبي المخطوطات.

والثقافة العربية الإسلامية من هذه الناحية؛ أي: من ناحية شعبيتها تختلف اختلافًا كبيرًا عن الثقافة اللاتينية في القرون الوسطى، إذ كانت مجهولة خارج أديرة الرهبان ومدارس الكنائس في أوروبا المسيحية.

وعلى الرغم من أن الثقافة الإسلامية خلال عصورها الطويلة لم تكن مقصورة على مساجد العلم التي تقام فيها حلقات التدريس، وإنما نافست المساجد في بعض مراحل التاريخ المدارس التي أنشأها رجال الدولة في المدن الكبيرة؛ إلا أن حلقات ومعاهد الدراسة في المساجد كانت لها خصوصية ما.

كما أن هذه المساجد العلمية لم تكن منعزلة داخل أقطارها، ولم تمارس نشاطها خلف أسوار تحجبها عن التيارات الفكرية العامة التي عاشتها الجماعة الإسلامية، ولم تكن بمنأى عن المدارس الثقافية الكبرى التى شملت الحياة الإسلامية في المراحل التاريخية المتعاقبة.

وقبل عصر النهضة كان الأزهر من أبرز المساجد التي تركزت فيها الحركة العلمية والفكرية، وارتبط به جمهور الناس في العالم الإسلامي. ومع ذلك فإن التأثير الفكري والثقافي للأزهر لم يلق الاهتمام الكافي،

وكثيرًا ما يُعوِز الباحث النصوص والوثائق عن حقب ممتدة من تاريخ هذا المسجد ودوره.

التأسيس والعهد الفاطمي:

حكم الفاطميون إفريقية قبل تحول خلافتهم إلى مصر أكثر من نصف قرن، وكانت آمالهم تتجه إلى هذه البلاد، لحسن موقعها الجغرافي الذي يساعدهم على الإغارة على بلاد الدولة العباسية، وصلاحيتها لنشر الدعوة الإسماعيلية؛ ولذلك لم يكد جوهر يستقر في مصر حتى أسس مدينة القاهرة في سنة 362 هـ، وأصبحت مركزًا رئيسيًا لنشر الدعوة الفاطميةٍ[1]. وكان بناء مسجد يجتمع فيه المسلمون للصلاة أول ما كانت ترمي إليه سياسة أمراء المسلمين، وخاصة عند تأسيسهم عاصمة جديدة لما يفتحونه من بلاد.

وكان الفاطميون رأوا من الحزم ألا يأخذوا السنين على غرة في مبدأ حكمهم، بإضافتهم إلى الخطبة هذه العبارة: السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله. وما كاد جوهر يضع أساس القاهرة حتى شرع في بناء مسجد يتلقى الناس فيه عقائد المذهب الفاطمي[2]. وقد شرع في بناء الأزهر -في رأي المقريزي- حول منتصف سنة 359 هـ، وانتهى من بنائه في رمضان سنة 361 هـ؛ أي: بعد دخوله مصر بنحو سنتين[3].

هذا والجامع الأزهر رابع المساجد الجامعة فى حواضر مصر؛ فقد بنى عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط الجامع المعروف بجامع عمرو في سنة 21 هـ، وكان يطلق عليه: المسجد الجامع، وتابع الجوامع، والجامع العتيق. ثُمَّ أسس العباسيون مسجدًا ثانيًا أنشأه والي مصر صالح بن علي العباسي، عرف بجامع العسكر، وقد ظل قائمًا حتى فتح جوهر مصر، ولكن أزاله بدر الجمالي الذي هدم مدينة العسكر لتجميل مدينة القاهرة. وبنى أحمد بن طولون في مدينة القطائع الجامع الذي لا يزال يعرف باسمه، وما زال يأتيه السياح والزوار، وقد أثر عنه أَنَّهُ قال حين

عزم على بنائه: أريد أن أبني بناء، إن احترقت مصر بقي، وإن غرقت بقي. فقيل له: يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوي على النار إلى السقف، ولا يجعل فيه أساطين رخام، فإنه لا صبر له على النار. ولهذا بقي هذا المسجد إلى اليوم على الرغم من تخريب مدينة القطائع وسقوط الطولونية على يد محمد بن سليمان الكاتب قائد العباسيين سنة 292 هـ(4، 5).

وقد اختلفت الآراء حول تسمية الأزهر بهذا الاسم؛ فقيل: إِنَّهُ أطلق عليه أول الأمر اسم جامع القاهرة، ثُمَّ سمّي باسمه الحالي نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء، والتي ينتسب إليها الفاطميون(6).

ولقد أسهم الأزهر في العهد الفاطمي بنصيب كبير في الحركة العلمية، حيث تعقد فيه حلقات لدراسة الدين واللغة والأدب والقراءات والنحو والمنطق والفلك. كما كان مركزًا للتعريف ببعض نواحي الحياة الرسمية في الدولة، فكانت تعقد فيه الاجتماعات الهامة، وتصاغ الاتفاقيات الرسمية. كما كان مركز الاحتفالات الرسمية. وَفَّر (الفاطميون للأزهر خيرة فقهاء وعلماء الشيعة وقضاتها، وأغدقوا عليهم المال والعطايا، ونقلوا إليه كثيرًا من الكتب من مختلف الخزائن، وشجعوا طلاب العلم من البلاد الإسلامية الأخرى للالتحاق به، وكانوا بين الوقت والآخر يجرون توسعًا فى مبانيه وأروقته، وخصصوا أموالاً ثابتة لتنفق على الأزهر وطلابه(7).

وفى ظل الدولة التي أنشأت الأزهر وكلأته برعايتها ما يبلغ قرنين من الزمان من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن السادس، أراد الفاطميون فيهما تحقيق أهداف وطموحات كبرى، بإقامة مراكز للتثقيف وللنشاط العلمي وللتأليف في المجالات المتعددة، فأنشأوا دار العلم في القاهرة، وجعلوا في قصر الخلافة مكتبة ضخمة تلحق بها قاعات للدروس، وأنشأوا المساجد والأزهر أولها، واستقدموا العلماء من كل بقعة في العالم الإسلامي، ورتبوا لهم الوظائف ومنحوهم الألقاب

وشجعوهم على التأليف، وأقاموا مواسم واحتفالات لمناسبات تتصل بمعالم عقيدتهم، وتركوا للمذاهب الإسلامية الأخرى أن تفصح عن نفسها لكي يجادلوها ويدحروا أنصارها ويجتذبوهم إلى مذهبهم(8).

والسؤال الآن عن الدور الذي أسند للأزهر، الذي اصطلح به في المجال الواسع للنشاط العلمي والتثقيفي، يذكر الدكتور محمد كامل حسين في كتابه: «في أدب مصر الفاطميةِ» أن الجامع الأزهر لم تقتصر حلقاته على المذهب الإسماعيلي، وإنما قامت فيه حلقات لمذاهب أخرى(9).

لقد أراد الفاطميين أن يكون الجامع الأزهر مقر دعوتهم المذهبية، ولكنه بفضل يعقوب بن كلس(*) أصبح جامعة كبرى لعلوم الدين، وفي جملتها علوم الشيعة. وبهذا أخرج الأزهر عن الهدف الفاطمي إلى هدف أوسع، فيه إرضاء لشتى الرغبات الفكرية والمذاهب المختلفة(10).

ففي هذا المسجد اتخذت الدعوة الفاطمية مكانًا لها بين أماكن أخرى، وفيه عقد أول اجتماع بمصر للاحتفال بعيد الغدير. وفي ذلك يروي المقريزي أَنَّهُ في يوم الغدير ثمانية عشر من ذي الحجة سنة 362 هـ، اجتمع الناس بجامع القاهرة والقراء والفقهاء والمنشدون، فكانوا جمعًا عظيمًا أقاموا إلى الظهر، ثُمَّ خرجوا إلى القصر فخرجت إليهم الجائزة، وكان هذا أول ما عمل بمصر وبالجامع الأزهر، كان داعي الدعاة يعقد مجلسًا للنساء يلقي عليهن شيئًا من علوم أهل البيت. وفيه جلس القاضي عبد العزيز بن محمد بن النعمان وابتدأ في قراءة كتاب جدّه «اختلاف أصول المذاهب». ويذهب المقريزي إلى أن أول ما عرف من إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر في خلافة العزيز بالله نزار، وعمل ذلك بالجامع الأزهر.

ويقول القلقشندي: إن الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس... سأل العزيز بالله في حمله رزق جماعة من العلماء كانوا بمسجد القاهرة، وأطلق لكل

منهم كافيته من الرزق، وبنى لهم بجانب الجامع الأزهر.. فإذا كانوا يوم الجمعة حلقوا بالجامع بعد الصلاة وتكلموا في الفقه، وأبو يعقوب القاضي الخندق رئيس الحلقة والملقي عليهم إلى وقت العصر، وكانوا سبعة وثلاثين نفرًا.

ودور الأزهر لم يقتصر على هذا فحسب؛ بينما الأزهر وسائر المساجد الأخرى التي أنشأها الفاطميون في القاهرة ومنها مسجد الحاكم كانت منابر عامة، ومقر للاحتفالات الدينية، ومسارح تغشاها مواكب الخلفاء في أيام الجمع والأعياد بكل ما يحيط بها من أبهة وفخامة تظهر هيبة الدولة، وتكون مصدر بهجة للناس.

يؤكد هذا ما ذكره الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه: «الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأوَّلِ» عن كتاب الفلك الدوار من أن القضاة في العصر الفاطمي كانوا يتثقفون أولاً في الأزهر، حتى إذا أتموا الدراسة أدخلوا إلى دار العلم التي كان يرأسها داعي الدعاة. وما نقله أيضًا عن المقريزي من أن الناس ازدحموا مرة لسماع القاضي محمد بن النعمان «وكان داعي الدعاة»، فمات منهم أحد عشر رجلاً من شدة الزحام، فمثل هذا الزحام لا يكون إلا حول محاضرات عامة شعبية النزعة تلقى في مساجد واسعة كبيرة كالأزهر ومسجد الحاكم، لا حول دراسات علمية تعالج أمورًا فلسفية وجدلية؛ فهذه الأخيرة كانت لها أوقات أخرى، ويشارك الأزهر فيها مراكز عدة. فحسب رواية المقريزي أن يعقوب بن كلس «لما تولى الوزارة رتب في داره العلماء والفقهاء، وألف كتابًا في الفقه يتضمن ما سمعه من المعز لدين الله ومن ابنه العزيز بالله مِمَّا يدل على أن بيوت كبار القائمين بالدعوة كانت مركزًا آخر لتخرج العلماء المتخصصين.

وفكر يعقوب بن كلس في مزيد من التقدم نحو أهدافه البعيدة المرامي، وكان مشروع الجامعة الأزهرية»؛ أهم مشروع عمل فيه على إعلاء

مكانته، والعناية بالوافدين عليه من طلاب العلم وهواة البحث والتحصيل.

فعمل ابن كلس على إنشاء أروقة متعددة بصحن الجامع الأزهر لشتى الطلاب الوافدين عليه، وخصص لكل فئة من أولئك الغرباء رواقًا يجتمع فيه أهل القطر الواحد، فلا يحسون اغترابًا ولا نقصًا، ويشعرون بأنهم يعيشون في قطعة حية من بلادهم التي تركوها في سبيل طلب العلم.

وقدم ابن كلس لسيده العزيز مشروعًا يتلخص في ضرورة تعيين سبعة وثلاثين عالمًا من علماء الدين المتبحرين ذوي الخبرة والدراية ليرأسوا حلقات الدراسة بالأزهر تحت إشراف عميد لهم هو الفقيه: «أبو يعقوب» قاضي الخندق الذي ينظم لهم الدراسات، ويعين فروع التخصص، ومواقيت الدراسة. وأقر الخليفة العزيز بالله الفكرة الصائبة وربط للعلماء وشيخهم رواتب شهرية مغرية، وأقام لهم دارًا للسكن مجاورة للأزهر، وخلع عليهم الخلع، وربط الدواب لركوبهم وتنقلهم، وأحاطهم بالجاه، وخصهم بالشرف(11).

ويمكن أن تضاف إلى الأزهر وظيفة أخرى أقرب إلى أن تكون اجتماعية، ذلك أنه كان مأوى، وكان يبيت فيه كثير من الناس حسب ما رواه ابن إياس(12).

وكان من المعتاد في عهد العزيز بالله أن يبدأ احتفال الدولة بالمولد النبوي في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول من كل عام، وأن يتميز الاحتفال بطابعين طابع عام رسمي تشرف عليه الدولة وتتولى إعداده وترتيبه، وطابع آخر شعبي يقيمه العامة وأهل البلاد. أما الرسمي فكان يبدأ في اليوم المتعارف عليه بعد صلاة العصر، فيخرج الموكب إلى الجامع الأزهر وعلى رأسه القاضي، وما أن يصل إلى الجامع حتى يأخذ كبار رجال الدولة مجلسهم التقليدي في صحن الأزهر، وتبدأ مراسم الاحتفال. وما أن تنتهي المراسم التقليدية للاحتفال حتى يسارع

القراء بعرض فنون قراءاتهم، ويتبارى الخطباء حسب درجاتهم في إلقاء كلمات المديح والخطب، وكذلك الشعراء.

ومن المناسبات الموسمية التي سن الفاطميون تقاليد الاحتفال بها في الديار المصرية مناسبة الاحتفال بظهور هلالي رجب وشعبان ومنتصفي هذين الشهرين الكريمين.. وكانوا يسمون هذه الليالي الأربع «ليالي الوقود».

ودور الجامع الأزهر في هذه الاحتفالات الموسمية الأربع ظاهر وواضح، فهو كعبة القصاد والمحتفلين، ومسرح المناسبة، ومكان ظهورها وتقديمها؛ فتضاء واجهته ومداخله وصحنه والطرق المؤدية إليه بالمشاعل، وتوضع حول صحنه التنانير والقناديل والشمع على الرسم فى كل سنة، والأطعمة، والحلوى، والبخور في مجامر الذهب والفضة، ويطاف بها على الحضور، وفيهم قاضى القضاة وشهوده ووجهاء البلاد؛ حيث تقدم إليهم سلال الحلوى والطعام، ويبدأ القراء والمنشدون قراءاتهم وأناشيدهم، ويستمرون فى سمرهم هذا حتى منتصف الليل وكان الخليفة يشارك بنفسه(13).

ومثل هذه الأمور وتلك المظاهر مثلت ولا زالت جانبًا هامًا من ثقافة الشعب المصري، ولعب الأزهر الشريف فيها دورا مهما، بل ومثل الركن الأساسي الذي تنطلق من الاحتفالات ويمنحها شرعيتها.

ومن أهم الأمور التي عملت على انتشار الفكر والثقافة في العهد الفاطمي مناخ الحرية والبعد عن التعصب؛ فالسلاطين الفاطميون لم يغلقوا المساجد الأخرى أو مؤسسات العلم التي تدعو وتنشر ثقافات ومذاهب غير المذهب الإسماعيلي، فلقد كان مسجد عمرو بن العاص على سبيل المثال بالفسطاط مركز للإشعاع الثقافي لم يغمر مصر وحدها، وإنما تجاوزها إلى بلاد المغرب الإسلامي كله؛ لأنه كان محطًا لقافلة علمية طويلة الرحلة، تبدأ من المدينة المنورة حيث مجلس مالك بن أنس صاحب المذهب، فتقف في الفسطاط في جامعها العتيق، ثُمَّ

تمضي إلى القيروان في جامع عقبة بن نافع، ثُمَّ إلى فاس في المغرب، وقرطبة في الأندلس.

وكانت ذكريات الصحابة الذين وقفوا عند بنائه، والعلماء الكبار كالليث بن سعد والشافعي وابن القاسم وبني عبد الحكم وورش وابن وهب تثير خيال الزائرين له.

كما أن حلقات التدريس والعلم في جامع عمرو ظلت قائمة خلال العصر الفاطمي، بل إن ما وصل إلينا عن نصوص ووثائق تدل على أَنَّهَا مزدهرة في هذا العصر، وأن الخلفاء الفاطميين أنفقوا على هذا المسجد بسخاء وشجعوا الحركة العلمية فيه.. ويكفى أن نذكر ما رواه المقريزي: «وفي سنة ثلاث وأربعمائة أنزل من القصر إلى الجامع العتيق؛ أي: جامع عمرو بألف ومائتين وثمانية وتسعين مصحفًا ما بين ختمات وربعات.. فيها ما هو مكتوب كله بالذهب، ومكن الناس من القراءة فيها. وأنزل إليه أيضًا تنور من فضة عمله الحاكم بأمر الله برسم الجامع فيه مائة ألف درهم. فاجتمع الناس وعلم بالجامع بعد أن قلعت عتبتا الباب حتى أدخل به، وكان من اجتماع الناس لذلك ما يتجاوز الوصف»(14).

وقد أنجبت مصر في العهد الفاطمي من فقهاء السنة أفذاذًا، وخاصة من أصحاب المذهب الشافعي والمالكي.

وخلاصة ما يقال عن دور الأزهر في هذه المرحلة في تاريخه الطويل أَنَّهُ شارك في الحياة الثقافية مشاركة ربطت ما بينه وبين دار العلم وقاعات الدرس في قصر الخلافة؛ فكان المنبر العام لهذه المراكز الخاصة، كما أن العامة من الناس ارتبطوا بالأزهر وبحركته العلمية والفكرية بشكل عام، ولاحظنا أن الاحتفالات المهمة أيضًا بدأت من الأزهر وانتهت مظاهرها فيه، وجسد رمزًا روحيًّا ماديًّا لكل مسلم في بر مصر في هذه المرحلة وجيرانها من بلاد المسلمين.

المرحلة الثانية:

تمتد هذه المرحلة من قيام الدولة الأيوبية إلى قيام الحكم التركي، حيث تراجع دور الأزهر في الدولة الأيوبية، التي قامت بعد وفاة العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين في عاشوراء سنة (567 هـ - 1171م)، وكان وزيره صلاح الدين الأيوبي الذي أسقط اسمه من خطبة الجمعة، ودعا صلاح الدين بخطبة الجمعة للخليفة العباسي المستضئ بالله[15]، وكان يقصد من ذلك وحدة المسلمين في هذه الفترة.

ورأى صلاح الدين في الجامع الأزهر بوضعه وقتذاك صورة للدعاية وصوتًا للترويج للمذهب الشيعي، فأبطل الخطبة في الأزهر عملاً بمذهب الشافعي مذهب الدولة وقتئذ، وهو امتناع إقامة خطبتين للجمعة في مدينة واحدة. ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها مرحلة الاعتدال والهدوء ومرحلة الجمع للتراث والتوسع فيه.. وقد أخذ الأزهر يسير فيها شيئًا فشيئا ليصير آخر الأمر معقلاً للمذهب السني، وتأكد ذلك بعد أن انتهت الدولة الأيوبية سنة 648هـ - 1250م.

وبدأ عهد سلاطين المماليك بدولَتيهم -البحرية والبرجية-، ومن جديد بدأ الأزهر في القيام بدوره العلمي الفكري بشكل واسع، بدءًا من سلطنة الظاهر بيبرس «658- 676 هـ».

فقد كان عز الدين بن أيدمر أحد أمراء دولة الظاهر بيبرس يسكن دارًا بجوار الجامع الأزهر مكانها الآن المدرسة الأقبغارية من مباني الأزهر الحالية وبها مكتبته. فرعى عز الدين حق الجوار، واستصدر أمرًا من الظاهر بإعادة الجمعة في الجامع الأزهر.

وَلَـمَّا أراد الظاهر بيبرس إعادة الخطبة إلى الأزهر رفض قاضي القضاة وقت ذاك تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز -وهو شافعي-، وامتنع عن التصريح بذلك طبقًا لمذهبه، فاستصدر الظاهر فتوى من العلماء أصحاب المذاهب الأخرى بجواز ذلك. وتوفي ابن بنت الأعز

في رجب سنة 665 هـ بعد إعادة الخطبة بثلاثة شهور تقريبًا. وقيل: إن هذا من الأسباب التي جعلت الظاهر يستحدث نظام القضاة الأربعة؛ أي: قاض لكل مذهب(16).

وحظي الأزهر في العهد المملوكي برعاية أكثر من العهد الأيوبي، وبعد أن كانت نظرة صلاح الدين وخلفائه نحو هذا المسجد نظرة فيها كثير من الشك، إن لم نقل الإعراض. وهذه المرحلة الوسطى هي أطول مراحل الأزهر؛ لأنها تقرب من أربعة قرون.

أما أن هذه المرحلة مرحلة الجمع والتوسع، فيشهد بذلك في مصر المؤلفات الموسوعية الضخمة التي تجمع شتات العلوم والمعارف، كما يمثلها كتاب نهاية الأرب للنويري، ومسالك الأبصار للعمري، وكلاهما عاش في مصر.

ولكن شيوع الثقافة في هذه المرحلة واكتمال تعريب كثير من أقطار الوطن العربي ومصر خاصة؛ أتاح للآداب العامية ازدهارا لم تشهده من قبل، وأتاح لحركات دينية هي أقرب إلى العقائد الشعبية أن تتخذ لها مكانًا في المجتمع، وهي حركات الدراويش أصحاب الطرق.

يمكن أن يقال: إن الأزهر في النصف الأول من هذه المرحلة(17) لم يكن ذا سلطان كبير في الحياة الثقافية بمصر لكثرة المدارس واهتمام الدولة لها.. وكانت أول مدرسة أنشئت لدراسة الفقه الشافعي سنة 569 هـ بجوار جامع عمرو، وعلى مقربه أنشئت المدرسة القمحية لدراسة الفقه المالكي، وكانت تشير الدراسة في هذه المدارس رفعة ما هو متعارف في المساجد: العناية بالفقه والحديث وعلوم اللسان والبلاغة وعلم التوحيد إلى علوم أخرى أقل أهمية كالحساب والفلك.

وكان للأدب والنصوص الأدبية عند علماء الأزهر والمساجد الأخرى مكانة أعلى بكثير مِمَّا صارت إليه في المرحلة الأخيرة. فتراجم علماء هذا العصر تثبت أَنَّهُم كانوا على حظ كبير من العناية بالأدب، غير أن

الجهود التي بذلتها الدولة الأيوبية لم تصرف الناس بالكلية عن الدراسة في الأزهر، وكان العلماء الوافدون إلى مصر يتشرفون بإلقاء الدروس فيه، كما فعل موسى بن ميمون الذي قدم إلى مصر أيام صلاح الدين، ودرس في الأزهر الرياضة والفلك وعلوم الطب. وكما فعل أيضًا الخطيب البغدادي الذي ألقى فيه دروسًا في علم الكلام والمنطق والطب.

وقدم المقريزي صورة لهذه الفترة من حوادث سنة 818 هـ ورد فيها: «وذلك أَنَّهُ لم يزل في هذا الجامع منذ بني عدة من الفقراء يلازمون الإقامة فيه، وبلغت عدتهم في هذه الأيام سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزيالعة ومن أهل الريف المصري ومغاربة، ولكل طائفة رواق يعرف بهم. فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم العامة والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر. فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره، وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والمال، إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله، وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والحلاوات لاسيما في المواسم».

لقد استطاع الأزهر أن يثبت وجوده رغم المعارضات القوية، وذلك لثقة الناس به لقدم عهده، ولخروجه عن الدائرة الضيقة والغرض المحدد الذي أنشئت من أجله المدارس الحديثة. وبلغ ذروته في القرن التاسع، وكان ذلك إثر الحوادث العالمية، وبخاصة ما كان يدور منها في الأقطار الإسلامية، فكان زحف التتار على بغداد وحملات الصليبيين على دول الشرق واضطهاد الأسبان للمسلمين في الأندلس عاملاً من أهم العوامل لفرار الناس بدينهم يبتغون مأوى آمنًا، يجدون فيه العيش، ويتمكنون فيه من أداء العبادة وتلقي العلم. وكانت مصر بأزهرها هي أفضل مكان تحقق فيه ذلك(18).

وقد برز من العلماء في هذين العصرين كثيرون منهم ابن دقيق العيد 702 هـ، والنويري صاحب مسالك الأبصار 748 هـ، وتقي الدين السبكي 756 هـ، والبلقيني 805 هـ، والدميري صاحب موسوعة حياة الحيوان 808 هـ، والقلقشندي صاحب صبح الأعشى 821 هـ، والمقريزي845 هـ، وابن حجر 852 هـ، وغيرهم[19].

لقد كان الأزهر في هذا الوقت يدرس ثقافة العصر، ويلم علماؤه بجميع العلوم الدينية والعربية وأخرى من علوم الرياضة والفلك والطب والموسيقى. وكان اتساع صوره لجميع العلوم والفنون يرجع إلى طبيعة الدين الإسلامي في حثه على تحصيل العلم أيا كان نوعه ما دام يفيد المجتمع في دينه ودنياه.

ووجد العلم أرضا خصبة في الأزهر أيام المماليك خصوصًا بعد ضعف المدارس، وتدهور الفكر، وقلة الإقبال على العلوم غير الدينية والعربية؛ غير أَنَّهُ في أواخر القرن التاسع الهجري حدث بين جدرانه ركود علمي لانصراف الناس عن العلوم العقلية والفلسفية على أثر فتوى لبعض الفقهاء -كابن الصلاح- بتحريم الاشتغال بها.

وفي هذا الوقت الذي قلت فيه كمية العلوم التي تدرس، وأصبح الأزهر وحده المأوى الذي يتوفر فيه العلم والثقافة، والوقت الكافي للدراسة، وتهيئة وسائل العيش والإقامة؛ وجد ميل كبير للتدقيق في كل ما يقرأ ويدرس، فيصرف الوقت الكثير لفهم مسألة واحدة أو حل معنى لفظ أو كشف السر في حرف بين كلمتين. كما وضعت الفروض واقترحت الإجابات وسبح خيال المعلم والمتعلم على السواء في آفاق واسعة بعيدة للبحث في مسائل لا تمت إلى الواقع بصلة.

وكانت الدولة المملوكية في تلك الفترة قد شاخت وأخذت تسير نحو الانهيار بخطى سريعة، وتصدع بناء المجتمع المصري، وأخذ في الانحلال والتفكك[20].

وغدا الأزهر إلى جانب هذا، وخلال هذه الفترة المكان الأثير لإقامة شعائر الدين في حقبة اجتاحها التعصب، كما عصفت بها الخرافات والأباطيل، وأصبح عامة الناس وهم يعانون الفقر والمسغبة ويعصف بهم الجهل ضحايا التعصب والخرافة، وأصبحت الحاجة ماسة إلى إحياء تعاليم الإسلام وهو ما اضطلع به الأزهر من جديد[21]، حتى وإن كان بشكل حثيث.

وقد انتهت إلينا أسماء بعض أكابر العلماء الذين كانوا يتولون التدريس بالجامع الأزهر في القرن الثامن الهجري، فمنهم في فاتحة هذا القرن الإمام على بن يوسف بن جرير اللخمي الشنطوفي شيخ الإقراء في عصره، تصدر للإقراء بالأزهر، وأقبل عليه الطلاب إقبالاً عظيمًا فذاع صيته في أنحاء العالم الإسلامي. ومنهم عدة ذكرهم لنا الرحالة ابن بطوطة الذي وفد على مصر سنة 726 هـ، وزار الجامع الأزهر، وتعرف بعلمائه، وهو يشيد بذكر بعضهم، ومنهم: قوام الدين الكرماني، وكان يسكن بأعلى سطح الجامع، وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه. وشمس الدين الأصبهاني إمام الدنيا في المعقولات. وشرف الدين الزواوي المالكي[22].

وكان بمصر في هذا الوقت بالذات العلامة الأندلسي اللغوي النحوي الكبير «محمد بن يوسف بن حيان النغزي الغرناطي» يلقى دروسه بالجامع الأزهر، وكان من تلاميذه العلامة والفقيه المصري تقي الدين أبو الحسن السبكي. ويشيد البلوي في رحلته بعبقرية العلامة الغرناطي، وسمعته العلمية الواسعة بين تلاميذه المصريين.

ونستطيع أن نذكر من الأساتذة الذين تولوا التدريس في الأزهر خلال القرنين الثامن والتاسع الهجري: قنبر بن عبد الله الشرواني، وكان عالمًا فيلسوفًا يدرس العلوم العقلية مثل المنطق والحكمة والهيئة، وكان مقيمًا بالجامع الأزهر نفسه. وابن الدماميني إمام النحو في عصره. والفخر البلبيسي الضرير أستاذ القراءات وإمام الأزهر. المؤرخ تقي الدين

المقريزي. والعلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني، فقد تولى خطابة الأزهر في أواخر حياته.

كان القرن التاسع الهجري «الخامس عشر الميلادي» بالنسبة لمصر الإسلامية عصر الذروة وعصر الانهيار معًا؛ ففيه بلغت مصر وبلغت المدينة المصرية في ظل دولة السلاطين أقصى مراحل التقدم والازدهار، واستمرت على قوتها طوال القرن التاسع. وحفلت مصر في تلك الحقبة الطويلة بجمهرة من أعظم علمائها وكتابها، مثل: الحافظ ابن حجر العسقلاني، وأبي العباس القلقشندي صاحب موسوعة الدبلوماسية الكبرى المسماة «صبح الأعشى»، ومؤرخ مصر الكبير تقي الدين المقريزي صاحب «الخطط الشهيرة»، وابن تغردي بردي صاحب «النجوم الزاهرة»، وبدر الدين العيني، وسراج الدين البلقيني، وشرف الدين المناوي، وشمس الدين السخاوي صاحب «الضوء اللامع»، وجلال الدين السيوطي وغيرهم من أقطاب التفكير والكتابة في هذا العصر.

في هذه المرحلة كاد الأزهر ينفرد وحده بالعلم في القاهرة، ويذكر أنه استكملت بعض الجوانب الإدارية والتنظيمية، فاستحدث منصب المشيخة، وحددت مصادر الإنفاق.

وأهملت العلوم العقلية كالرياضيات والطب والفلك والكيمياء وغيرها مثل الأدب شعرًا ونثرًا، فلم يكن يدخل في نطاق الأزهر في تلك الفترة، وَإِنَّمَا كان يدرس خارج حلقات المسجد. وقد ظل الأزهر إلى عهد قريب يستهجن أن تقام حلقات فيه لمثل هذه الدراسة.

فإذا انتقلنا إلى طرق الدراسة ومدى ما وصلت إليه، وجدنا أن علماء هذه الفترة كانوا يعكفون على نصوص جافة مركزة يتخذونها متونًا، ويتولون شرحها وكتابة الحواشي عليها؛ ذلك أن طابع العصر التركي كله في مجال العلم كان قائمًا على الحفظ والتلقين، والاعتماد على المختصرات والوقوف عند الشكليات، وقل من كان يفكر في ذلك

العصر في أن يضيف جديدًا أو يبتكر ما لم يسبق إليه، أو أن يمد بصره إلى آفاق بعيدة كانت قد تفتحت عن نهضة جديدة في العالم الغربي.

وثمة شَيْء مهم يحسب للأزهر حيث وجدت اللغة العربية معقلاً تأوي إليه في عصر كانت لغة السادة المسيطرين فيه هي اللغة التركية، وأن هذه الدروس التي ظلت قائمة في الأزهر حول علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة مكنت اللغة العربية من أن تستمر لغة علم وثقافة إلى أن أدركها العصر الحديث بنهضة. كما ظل الأزهر ملتقى لطلاب العلم من المسلمين في أقطار الأرض جميعًا، فحقق نوعًا من التماسك بين أطراف العالم الإسلامي من كثير من الخرافات التي كانت نفوس الجماهير الإسلامية مهيأة لها بسبب التخلف والجهالة الغاشمة.

وقد أورد لنا الجبرتي أسماء طائفة كبيرة من العلماء الذين اضطلعوا بمهمة التدريس بالأزهر في أواخر العهد التركي، ومنهم: العلامة اللغوي الشاعر الشيخ حسين البدري الحجازي المتوفى سنة 1131 هـ، وكان كاتبًا وشاعرًا جزلاً، له طريقة بديعة في الشعر. والعلامة عبد الرؤوف بن عبد اللطيف البشبيشي المتوفى سنة 1143 هـ، وكان من أساتذة عصره في النحو والمعاني، ويصفه الجبرتي بأنه «خاتمة محقق العلماء». وأحمد بن عيسى العماوي المالكي، وكان من علماء الحديث. والشيخ الفقيه محمد بن أحمد الحنفي المتوفى سنة 1170 هـ. والشيخ حسن بن علي بن أحمد الشافعي الشهير بالمدابغي، كان من أشهر أساتذة الأزهر في عصره، وله حواشي وشروح عديدة منها: حاشية على جمع الجوامع، وشرح للأجرومية، وكثير غيرها، وقد توفي سنة 1170 هـ. والعلامة الفقيه الرياضي الشيخ حسين المحلي الشافعي، وكان وحيد عصره في الفقه والأصول وعلوم الرياضيات. والفقيه المحدث الشيخ أحمد بن الحسن بن عبد الكريم الخالدي الشافعي الشهير بالجوهري، المتوفى سنة 1182 هـ، وله شروح ورسائل كثيرة. والفقيه الشيخ حسن بن نور الدين المقدسي الحنفي المتوفى سنة 1182 هـ، وكان من أشهر فقهاء المذهب ومدرسيه، وله في شرحه مؤلفات قيمة. والعلامة النحوي

عيسى بن أحمد بن عيسى الشافعي المتوفي سنة 1182 هـ. وكانت حلقته بالأزهر من أشهر الحلقات، وكان يلقب بالشافعي الصغير لبراعته بالفقه. والشيخ عبد الرؤوف السجيني الشافعي شيخ الجامع الأزهر المتوفي سنة 1182هـ.

****

الهوامش

*) أكاديمي من جمهورية مصر العربية.

1- حسن إبراهيم حسن «دكتور»، وآخرون: المعز لدين الله، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ط2، 1963م.

2- حسن إبرهيم حسن «دكتور»: تاريخ الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، 1964م.

3- حسن إبراهيم حسن وآخرون: المعز لدين الله، مرجع سابق.

4- المرجع نفسه.

5- المرجع نفسه.

6- شوقى عطا الله الجمل «دكتور»: الأزهر ودروه السياسي والحضاري في أفريقيا، مركز وثائق تاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب «القاهرة»، ط1، 1988.

7- المرجع نفسه.

8- د. عبد العزيز الأهوانى: أثر الأزهر في الحياة الثقافية، مجلة الثقافة العربية، القاهرة، العدد الأول 1973م.

9- المرجع نفسه.

(*) أبو الفرج يعقوب بن كلس، كان وزيرا في الدولة الفاطمية حتى عهد الوزير بالله، وكان صاحب منزلة خاصة لدى سلاطين الدولة الفاطمية صاحب فكرة التقريب مذهبيا بين السلطان والرعية عن طريق نشر الثقافة الإسماعيلية وتأصيلها.

10- سنية قراعة: تاريخ الأزهر في ألف عام، مكتبة الصحافة الدولة للطباعة والنشر، القاهرة، ط1 1968م.

11- المرجع نفسه.

12- د. عبد العزيز الأهوانى: مرجع سابق.

13- سنية قراعة: مرجع سابق.

14- د. عبد العزيز الهوانى: مرجع سابق.

15- محمد كمال السيد: الأزهر جامعًا وجامعة، سلسلة البحوث الإسلامية «القاهرة» 1986م.

16- المرجع نفسه.

17- د. عبد العزيز الأهوانى: مرجع سابق.

18- عطية صقر: الأزهر بين القديم والحديث، مجلة منبر الإسلام، العدد 18، القاهرة.

19- المرجع نفسه.

20- سعاد ماهر: الأزهر أثر وثقافة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية, وزارة الأوقاف, القاهرة، ط1، 1962م.

21- بيارد دودج: الأزهر في ألف عام، ترجمة حسين فوزى النجار، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1997 مهرجان القراءة للجميع «القاهرة».

22- محمد عبد الله عنان «دكتور»: تاريخ الجامع الأزهر، مؤسسة الخانجى «القاهرة», ط2، 1968م.

23- المصدر نفسه.